بسم الله الرحمن الرحيم

أسلوب الالتفات
في
القرآن الكريم

تاليف

دكتورة / أمينة سليم

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وبعد ،

فقد وفقنى الله إلى موضوع من الموضوعات المهمة فى البحث البلاغى وهو « أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم » .

فعليه توكلت وإليه أنيب ، وهو حسبى ونعم النصير .

أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم

الالتفات أحد أشكال خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وقد عده بعض العلماء أمثال ابن جنى ت ٣٩٢ هـ ، وضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ ، والطوفى البغدادى ت ٧١٦ هـ ، والأمير العلوى ت ٧٤٩ هـ ضمن شجاعة العربية .

وقد عرفه العلماء بتعريفات مختلفة ، اخترت منها ما يناسب المقام فى البحث ، وهو تعريف الزركش فى البرهان [١] فقال :

" هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع ، وتجديدا لنشاطه وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل :

لا يصلح النفس إن كانت مصرَّفةً ∴ إلا التنقل من حال إلى حال

وذكر حازم القرطاجنى فى " منهاج البلغاء " [٢] فقال :

" وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله ياء على جهة الاخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافا أو تاء فيجعل نفسه مخاطبا ، وتارة يجعله هاء ، فيقيم نفسه مقام الغائب ، فلذلك كان الكلام المتوالى فيه ضمير متكلم أو مخاطب لا يستطاب ، وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض " [٣] .

---

(١) البرهان للزركش جـ ٣ ص ٣١٤ .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجنى ص ٣٤٨ تحقيق محمد الحبيب وانظر معترك الأقران جـ ١ ص ٣٧٧ .

(٣) منهاج البلغاء لحازم ص ٣٤٨ .

وقد عده الزركشى نقلاً معنوياً لا لفظيا ، وشرطه أن يكون الضمير فى المنتقل إليه عائدا فى نفس الأمر إلى الملتفت عنه ، ليخرج نحو " أكرم زيدا ، وأحسن إليه ، فضمير " أنت " الذى هو " أكرم " غير الضمير فى " إليه " [1] .

وقد اتفق جمهور العلماء على أن مقامات الالتفات هى :

" التكلم والخطاب والغيبة " لذا يكون الانتقال من مقام إلى آخر بعد التعبير بالأول ، بخلاف ما جاء عند السكاكى .

ولذلك نرى أن كلام الجمهور أخص من كلام السكاكى فى هذا الخصوص حيث إن كل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس .

وبذلك يكون مذهب السكاكى أعم من مذهب الجمهور لأن الالتفات عنده يتحقق بالتعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاث على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه ، سواء سبقه التعبير عن ذات المعنى بطريق آخر منها أو لم يسبقه .

وجدير بالذكر أن السكاكى سار على نهج الزمخشرى [2] فى هذا المذهب ، وخالفه فى ذلك السعد التفتازانى [3] والجمهور .

والرأى الراجح عندى فى الالتفات هو ما ذهب إليه السكاكى متابعا فيه الزمخشرى لاتساعه وشموله .

ويذكر الامام السيوطى [4] فى معتركه أن كل موضع من مواضع الالتفات يختص بنكت ولطائف باختلاف محله .

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ٣١٤ وانظر المعترك للسيوطى جـ ١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .
(٢) الكشاف جـ ٤ ص ٤٤٢ .
(٣) شروح التلخيص جـ ١ ص ١٥٣ والمطول ص ١٣٠ .
(٤) معترك الأقران جـ ١ ص ٣٧٨ .

أقسام الالتفات ستة

الأول - الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه ، وأنه أعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة كقوله تعالى : ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾ [1] الأصل (وإليه أرجع) فالتفت من التكلم إلى الخطاب ، وفائدته أنه أخرج الكلام فى معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه ، تلطفا وإعلاما أنه يريدلهم ما يريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه فى مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله [2] .

وأيضا فإن قومه لما أنكروا عليه عبادته لله ، أخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاحتج عليهم بأنه يقبح منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ، ثم حذرهم بقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ [3] .

لذا جعلوه من الالتفات ، وفيه نظر لأنه إنما يكون منه إذا كان القصد الإخبار عن نفسه فى كلتا الجملتين ، وها هنا ليس كذلك [4] . لجواز أن يكون أراد بقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ المخاطبين ولم يرد نفسه ، ويؤيده ضمير الجمع ، ولو أراد نفسه لقال : (أرجع أو نرجع على التعظيم) .

وأيضا فشرط الالتفات أن يكون فى جملتين ، و " فطرنى " و " إليه ترجعون " كلام واحد [5] .

---

(١) يس٢٢ .
(٢) البرهان جـ ٣ ص ٣١٥ .
(٣) البرهان جـ ٣ ص٣١٥ .
(٤) البرهان جـ ٣ ص٣١٥ .
(٥) البرهان جـ ٣ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

وأجيب بأنه لو كان المراد بقوله : " ترجعون " ظاهره لما صح الاستفهام الإنكارى ، لأن رجوع العبد إلى مولاه ليس بمعنى أن يعبده غير ذلك الراجع ، فالمعنى : كيف أعبد من إليه رجوعى ، وإنما ترك " وإليه أرجع " إلى " وإليه ترجعون " لأنه داخل فيهم ، ومع ذلك أفاد فائدة حسنة ، وهى أنه نبههم أنهم مثله فى وجوب عبادة من إليه الرجوع ، فعلى هذا ، الواو للحال فى قوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ وعلى الأول الواو للعطف ليكون كلاما واحداً [1] .

وجعل الزركشى [2] منه قوله تعالى : ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا * فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك * وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ [3] .

ففى قوله : ﴿ رحمة من ربك ﴾ ، عدل عن قوله : " رحمة منّا " إلى قوله : ﴿ رحمة من ربك ﴾ لما فيه من الاشعار بأن ربوبيته تقتضى رحمته ، وأنه رحيم بعبده ، كقوله ﴿ كلوا من رزق ربكم ﴾ [4] ، وفى قوله : ﴿فأراد ربك﴾ وضع الاسم المظهر مكان الضمير لتكون " فأردنا " وهى من التكلم إلى الخطاب .

كما جعل منه قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ﴾[5] قال : ولم يقل : " لنغفر لك " تعليقا لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمن لسائر أسمائه الحسنى ، ولهذا علق به النصر فقال : ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾[6] .

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ٣١٥ - ٣١٦ .
(٢) البرهان جـ ٣ ص ٣١٦ .
(٣) الكهف ٨٢ .
(٤) سبأ ١٥ .
(٥) الفتح ١ .
(٦) البرهان جـ٣ صـ٢١٦ .

والمثالان معا لا ينطبقان على الالتفات من التكلم إلى الخطاب والزركشى ساه فى عدهما كذلك ، فإن الانتقال فى الثانى من التكلم بالضمير " نا " إلى الاسم المظهر " رب " وهو من قبيل الغيبة ، وربما دخلت الشبهة عليه من " الكاف " وهى ضمير الخطاب الذى أضيف إليه لفظ " رب " ولا دخل للمضاف إليه فى اثبات الالتفات أو نفيه (١) .

وأما المثال الأول فظاهره أنَّ الخبر كله من كلام الرجل الصالح يخاطب به موسى، فكاف الخطاب ، فيه لموسى على الأصل ، ولفظ " رب " المضاف إلى الكاف فى الموضعين : " أراد ربك " " رحمة من ربك " من خبر المتكلم عن الله ، وليس الإرادة إرادة العبد الصالح ، ولا الرحمة رحمته ، بدليل : " وما فعلته عن أمرى " حتى يكون الأصل " رحمة منا " على التكلم ، ثم انتقل منه إلى" ربك " فلا التفات من التكلم على ذلك أصلا ، لا إلى الخطاب ولا إلى غيره ، بل كل ما فيه وضع لفظ " رب " الثانى موضع ضمير الغائب لسبق مرجعه وهو لفظ " رب " المذكورة أولا .

ومع هذا فمقام المظهر والمضمر الذى خلفه المظهر هو الغيبة ولا التفات من غائب إلى غائب (٢) .

وإذا كان صاحب البرهان قد جرى على ما يرى بعض المفسرين من جواز أن يكون " فأراد ربك " و " رحمة من ربك " من كلام الحق معبرا عن ذاته بلفظ " رب " المظهر محل ضمير المتكلم فيما لو قيل : " فأردت " و " رحمة منى " فإن ذلك أيضا هو التفات من التكلم إلى الغيبة فلا انطباق للصورة عليه كمثال الفتح .

---

(١) تعبير الحق عن ذاته ص ٩٦ د / عز الدين على السيد .
(٢) تعبير الحق عن ذاته ص ٩٦ .

ولعل هذا هو ما حمل السيوطى على عدم أخذ المثالين لتلك الصورة فى كتابيه " الاتقان ومعترك الأقران " [1] مع حرصه الشديد على تتبع الزركشى ونقل حروفه أحيانا ، ونرى فهمه لحقيقة الصورة ، يحمله على وضع مثال سورة الفتح تحت صورة الالتفات من التكلم إلى الغيبة فى كتابيه جميعا ، وذلك ما فعله علماء البلاغة من قبل ومن بعد [2] .

ولا يظهر فى القرآن كله أن الحق عبر عن ذاته بضمير التكلم ثم بضمير الخطاب ، فخاطب نفسه لتصدق هذه الصورة على موضوعنا ، وإنما يأتى ضمير المخاطب معبرا به عنه تعالى من عباده على سبيل الدعاء أو غيره محكيا عنهم ، أو على سبيل تلقين الحق إياهم ما ينبغى أن يناجوه به ، فمثل قوله تعالى يعلم رسوله كيف يستعيذ بربه { قل أعوذ برب الفلق } و { قل أعوذ برب الناس } وما أشبهه لا يعد لفظ " رب " فيه التفاتا عن ضمير التكلم اعتبارا لأن المتكلم به هو الله ، ويجوز عند السكاكى لأنه لا يشترط اختلاف الكلام ، وحكاية الحق دعاء الداعين أو تلقينهم الدعاء كذلك [3] .

الثانى - الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

فى هذا المقام يطالعنا الزركشي بقوله [4] : " ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غائب ، وأنه فى كلامه ليس ممن يتلون ويتوجه ، فيكون فى المضمر ونحوه ذا لونين وأراد بالانتقال إلى الغيبة الإبقاء على المخاطب ، من قرعه فى الوجه بسهام الهجر ، فالغيبة أروح له ، وأبقى على

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٨٥ والمعترك جـ ١ ص ٣٧٨ .
(٢) تعبير الحق عن ذاته ص ٩٦ .
(٣) تعبير الحق عن ذاته ص ٩٧ د / عز الدين على السيد .
(٤) البرهان جـ٣ ص ٣١٧ .

ماء وجهه أن يفوت كقوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثرفصل لربك ﴾ [1] حيث لم يقل " فصل لنا " تحريضا على فعل الصلاة لحق الربوبية ، وقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ [2] ولم يقل " منا " وقوله : ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ [3] إلى قوله : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ولم يقل " بى " التفات من التكلم إلى الغيبة .

وقد ذكر صاحب البرهان [4] أن هذه الآية الكريمة بها التفات له فائدتان :

إحداهما : دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها .

والثانية : تنبيههُم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية ، التى هى أكبر دليل على صدقه ، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته ، بل لهذه الخصائص .

الثالث : الالتفات من الخطاب إلى التكلم :

يذكر السيوطى [5] فى معترك الأقران أن الالتفات من الخطاب إلى المتكلم لم يقع فى القرآن الكريم ، بينما ذكر كل من الفخر الرازى [6] والزركشى [7] مثالا واحدا من القرآن الكريم اتفقا عليه معا فى قوله تعالى : ﴿ قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ [8] على أنه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب

---

(١) الكوثر ١ ، ٢ .
(٢) الدخان ٤ - ٦ .
(٣) الأعراف ١٥٨ .
(٤) البرهان جـ٣ ص ٣١٧ .
(٥) معترك الأقران جـ ١ ص ٣٧٩ .
(٦) تسهيل نهاية الإيجاز ص ١٣٧ .
(٧) البرهان جـ ٣ ص ٣١٧ .
(٨) يونس ٢١ .

وهو فى الحقيقة التفات من الغيبة بالاسم المظهر " الله " إلى التكلم " نا " محل رسله ، وهذا ما يتوافق مع السيوطى فى نظرته وسهو الزركشى فيها .

كما ذكر كل من السكاكى [1] ت ٦٢٦ هـ ، وابن الأثيـر [2] ت ٦٣٧ هـ ، ومحمد بن على محمد الجرجانى [3] ت ٧٢٩ هـ ، والخطيب القزوينى [4] ت ٧٣٩ هـ قول علقمة بن عبدة شاهدا على هذا المقام فى قوله :

طحابك قلب فى الحسان طروب ∴ بعيْد الشباب عصر حان مشيب

تكلفنى ليلى ، وقد شط وليهـا ∴ وعادت عـواد بيننـا وخطـوب

فهذان البيتان يمثلان ما جاء عند هؤلاء العلماء فى الالتفات من الخطاب إلى التكلم ، فنراه قد انتقل من الخطاب فى قوله : " طحابك " إلى التكلم فى قوله : " تكلفنى " .

والهدف البلاغى من الالتفات هو أمر نفسى له مكانه ، لأن الالتفات عن أسلوب مترقبل إلى آخر غير مترقب ، كالتفات القاصد شيئا إلى غيره ، يفاجىء الناظر بغير ما تهيأت له نفسه ، فتلتفت النفس على الأسر لسر التعبير المفاجىء غير المنتظر ، فيزول السأم والرتابة وفتور النفس بالتزام الوتيرة الواحدة [5] .

الرابع : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

وفى هذا المقام نجد الزركشى يمثل له بهذه الشواهد القرآنية الرائعة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ [6] فقد

---

(١) مفتاح العلوم ص ٩٦ .
(٢) المثل السائر جـ ص ١٢٢ .
(٣) الاشارات والتنبيهات ص ٥٦ تحقيق د / عبد القادر حسين .
(٤) الايضاح ص ١٠٤ تحقيق د / عبدالقادر حسين .
(٥) تعبير الحق عن ذاته ص٩٤ د / عز الدين على السيد.
(٦) يونس ٢٢ .

التفت من " كنتم " إلى " جرين بهم " وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم ، لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت الفائدة .

وقيل : لأن الخطاب كان أولا مع الناس مؤمنهم وكافرهم بدليل قوله : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ فلو قال " وجرين بكم " للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول للاشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ماذكره عنهم فى آخر الآية ، فعدل عن الخطاب العام إلى الذم الخاص ببعضهم ، وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم [1] .

وقيل : لأنهم وقت الركوب حصروا لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح ، فناداهم نداء الحاضرين ، ثم إن الرياح لما جرت بما تشتهى النفوس ، وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ما هى عادة الإنسان [2] ، أنه إذا أمن غاب ، فلما غابوا عند جريه بريح طيبة ، فكرهم الله بصيغة الغيبة ، فقال : ﴿ وجرين بهم ﴾ [3] .

ويضيف السيوطى معقبا على هذه الآية الكريمة فيقول : " رأيت عن بعض السلف فى توجيهه عكس ذلك ، وهو أن الخطاب أوله خاص وآخره عام ، فأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ قال : ذكر الحديث عنهم ، ثم حدث عن غيرهم ، ولم يقل : " وجرين بكم " لأنه قصدأن يجمعهم وغيرهم وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق ، هذه عبارته ، فلله درُّ السلف ما كان أوقعهم على المعانى

---

(١) البرهان جـ ٣ ص ٣١٨ .
(٢) البرهان جـ ٣ ص ٣١٨ .
(٣) البرهان جـ ٣ ص ٣١٨ .

اللطيفة التى يدأب المتأخرون فيها زمانا طويلا ، ويفنون فيها أعمارهم ، ثم غايتهم أن يحوموا حول الحمى " [1] .

ومن مقام الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ [2] ثم قال ﴿ يطاف عليهم ﴾ [3] فانتقل الخطاب إلى الغيبة ، ولو ربط بما قبله لقال : " يطاف عليكم " لأنه مخاطب لا مخبر ، ثم التفت فقال : ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ [4] فكرر الالتفات [5] .

وقوله :﴿ اتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [6] وقوله : ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ [7] وقوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون * وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ [8] والأصل " تقطعتم " عطفا على ما قبله ، لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة ، فقيل : إنه سبحانه نعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ، ووبخهم عليه قائلا : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله [9] .

الخامس : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

كقوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصي الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [10] .

---

(١) المعترك جـ ١ ص٣٨٠ .
(٢) الزخرف ٧٠ .
(٣) الزخرف ٧١ .
(٤) الزخرف ٧١ .
(٥) البرهان جـ ٣ ص ٣١٨ .
(٦) الروم ٣٩ .
(٧) الحجرات ٧ .
(٨) الأنبياء ٩٢ ، ٩٣ .
(٩) البرهان جـ ٣ ص ٣٣٠ .
(١٠) الاسراء ١ .

وقوله تعالى : ﴿ وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه ﴾ [3] ويذكر صاحب البرهان [4] ، فائدة الالتفات فى هذه الآية السابقة فيقول : إنه لما كان سوق السحاب إلى البلد إحياء الأرض بعد موتها بالمطر ، دالا على القدرة الباهرة .

والآية العظيمة التى لا يقدر عليها غيره ، عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ، لأنه أدخل فى الاختصاص ، وأدل عليه وأفحم ، وفيه معنى آخر ، وهو أن الأقوال المذكورة فى هذه الآية منها ما أخبر به سبحانه بسببه ، وهو سوق السحاب فإنه يسوق الرياح ، فتسوقه الملائكة بأمره ، وإحياء الأرض به بواسطة إنزاله ، وسائر الأسباب التى يقتضيها حكمه وعلمه وعادته سبحانه فى كل هذه الأفعال أن يخبر بها بنون التعظيم الدالة على أن له جندا وخلقا قد سخرهم فى ذلك .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ﴾ [5] .

فإن الالتفات فيها وقع من الغيبة فى قوله : " أنزل " والضمير فى الفاعل المستتر جوازا وتقديره هو ، إلى التكلم فى قوله : " فأخرجنا " وهو ضمير المتكلم " نا " .

---

(١) فصلت ١٢ .
(٢) مريم ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) فاطر ٩ .
(٤) البرهان جـ ٣ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .
(٥) فاطر ٢٧ .
(٦) النمل ٦٠.

ومنه قوله تعالى : ﴿أمَّنْ خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ [1] .

فنجد الالتفات فى هذه الآية وقع من الغيبة فى الفاعل ضمير الحق تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ خلق السماوات والأرض﴾ والتكلم فى قوله تعالى : " فأنبتنا " .

وأما قوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتي ﴾ [2] .

فقد جعل الزركشى [3] الالتفات فيها محل التشكيك قال : وجعل الزمخشرى منه قوله فى سورة " طه " : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتي ﴾وزعم الجرجانى أن فى هذه الآية التفاتا ، وجعل قوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ آخر كلام موسى : ثم ابتدأ الله تعالى فأخبر عن نفسه بأوصافها ..... " .

والنص مع السياق يجعلنا نعود إلى الآيات السابقة على هذه الآية فنجد فى قوله تعالى : ﴿ فمن ربكما يا موسي قال : ربنا الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدي * قال : فما بال القرون الأولي قال : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسي * الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتي * كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾ [4] .

---

(١) النمل ٦٠. (٢) طه ٥٣ .
(٣) البرهان جـ ٣ ص ٣٢٠ .
(٤) طه ٤٩ – ٥٤ .

أما عبارة صاحب الكشاف [1] فهى " فأخرجنا " انتقل فيه من لفظ الغيبة فى قوله : " أنزل " إلى لفظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع ، تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته ، لا يمتنع شيء على إرادته ، وفيه تخصيص أيضا بأننا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد .

ويعقب ابن المنير [2] على كلام الزمخشرى فى عد هذه الآية من الالتفات وحجته فى ذلك قوله : " إنما يكون الالتفات فى كلام المتكلم الواحد يصرف كلامه على وجوه شتى ، وما نحن فيه ليس من ذلك ، فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون : ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ثم قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا ﴾ إلى قوله : ﴿ فأخرجنا به أزواجا من نبات شتي ﴾ فإما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك أمرنا وعمرنا ، وإنما يريدون الملك ، وليس بالتفات .

وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله : " ولا ينسى " ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات انعامه على خلقه فليس التفاتا أيضا ، وإنما هو انتقال من حكاية إلى انشاء خطاب وعلى هذا التأويل ينبغى للقارىء أن يقف وقفة عند قوله : ﴿ ولا ينسى ﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية .

ويحتمل وجها آخر : وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة ، فقال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاً * وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتي ﴾ فلما

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٤٠ ط تهران .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٣٩ .

حكاه الله عنه أسند الضمير إلى ذاته لأن الحاكى هو المحكى فى كلام موسى ، فمرجع الضميرين واحد ، وهذا الوجه حسن دقيق الحاشية ، وهو أقرب الوجوه إلى الالتفات لكن الزمخشرى لم يعنه .... والله أعلم .

وبهذا الاحتمال الأخير الذى ذكره ابن المنير ، يكون الالتفات قد تحقق فى الآية الكريمة ، مما يتفق ونظرة كل من الزمخشرى والجرجانى ، وأزال الشك الذى وقع فيه الزركشى من عد هذه الآية من الالتفات .

ومثله قوله تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحي في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [1] عدل عن الغيبة فى " فقضاهن " و " وأوحى " إلى التكلم فى قوله : " وزينا " فقيل للاهتمام بذلك ، والاخبار عن نفسه ، بأنه جعل الكواكب زينة السماء الدنيا ، وحفظا ، وتكنيبا لمن أنكر ذلك .

ويوضح الزركشى [2] مقاصد الالتفات فى هذه الآية الكريمة ، أنه قصد به الإخبار مطلقا ، من غير قصدمدة خلقه ، وهو تزيين سماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها حفظا ، فإنه لم يقصد بيان مدة ذلك ، بخلاف ما قبله ، فإن نوع الأول يتضمن إيجادا لهذه المخلوقات العظيمة فى هذه المدة اليسيرة ، وذلك من أعظم آثار قدرته ، وأما تزيين السماء الدنيا بالمصابيح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم ، فالتفت من الغيبة إلى التكلم ، فقال : " زينا " [3] .

السادس : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب :

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب ورد كثيراً فى القرآن الكريم كما جاء فى

---

(١) فصلت ١٢ .
(٢) البرهان جـ ٣ ص ٣٢١ .
(٣) البرهان جـ ٣ ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ﴾ [1] فعدل عن " جاءوا " بقوله : " جئتم " وعلى هذا يكون الالتفات فى هذه الآية الكريمة من الغيبة فى قوله : " قالوا " إلى الخطاب فى قوله : " جئتم " للدلالة على شدة توبيخهم ، لأن الحق تبارك وتعالى أنكر على من قال مثل قولهم فكأنه يخاطب به قوما حاضرين ، لأن توبيخ الحاضر أبلغ فى الإهانة له .

والحقيقة أننا نستدرك على صاحب البرهان وجود هذه الآية الكريمة فى المقام السابق وهو " الانتقال من الغيبة إلى التكلم " حيث إن مكانها الصحيح فى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب .

وجعل الزركشى الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء ﴾ [2] فانتقل من الغيبة فى قوله : " وسقاهم " إلى الخطاب فى قوله : " لكم " للتنبيه على عظم منزلة هؤلاء ومكانتهم فى الآخرة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم ﴾ [3] ولم يقل كفروا .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم ﴾ [4] فعدل عن قوله ما كنزوا .

وقوله : ﴿ ألم تر إلي ربك كيف مد الظل ﴾ [5] ثم قال : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ .

---

(١) مريم ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) الإنسان ٢١ ، ٢٢ .
(٣) آل عمران ١٠٦ .
(٤) التوبة ٣٥ .
(٥) الفرقان ٤٥ .

أرى أن الزركشى قد جانبه الصواب حين وضع هذه الآية الكريمة ضمن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، فى حين أن حقيقتها فى الانتقال من الغيبة فى قوله : ﴿ مدَّ الظل ﴾ إلى التكلم فى قوله : " جعلنا " .

ومن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ [1] فقد عدل عن الغيبة إلى الخطاب ولم يقل خالصة له .

وقوله تعالى حكاية عن الخليل : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ﴾[2] إلى قوله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾[3] فقد انتقل من الغيبة فى قوله " ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه﴾ إلى الخطاب فى قوله : ﴿ تعبدون وتخلقون إفكا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين . إياك نعبد ﴾ [4] فقد التفت عن الغيبة وهو " مالك " إلى الخطاب وهو " إياك نعبد " ولك أن تقول : إن كان التقدير : قولوا الحمد لله ففيه التفاتان أعنى فى الكلام المأمور به .

أحدهما : فى لفظ الجلالة ، فإن الله تعالى حاضر ، فأصله الحمد لك .

والثاني : " إياك " لمجيئه على خلاف الأسلوب السابق وإن لم يقدر " قولوا " كان فى " الحمد لله " التفات عن التكلم إلى الغيبة ، فإن الله سبحانه وتعالى حمد نفسه ولا يكون فى " إياك نعبد " التفات ، لأن " قولوا " مقدرة معها قطعا ، فإما أن يكون فى الآية التفات أو لا التفات بالكلية [5] .

---

(١) الأحزاب ٥٠ .
(٢) العنكبوت ١٦ ، ١٧ .
(٣) العنكبوت ٢٤ .
(٤) الفاتحة ٤ ، ٥ .
(٥) البرهان جـ ٣ ص ٣٢٤ .

فوائد الالتفات

يخبرنا الزركشى[1] فى برهانه عن فوائد الالتفات فيقول :

" اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة ، فمن العامة التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما فى ذلك من تنشيط السامع ، واستجلاب صفائه ، واتساع مجارى الكلام ، وتسهيل الوزن والقافية " .

ثم يذكر الزركشى ما قاله البيانيون فى هذا الخصوص فيقول :

" إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال ، حسن تغيير الطريقة ونازعهم القاضى شمس الدين بن الجوزى وقال : الظاهر أن مجرد هذا لا يكفى فى المناسبة ، فإنا رأينا كلاما أطول فى هذا والأسلوب محفوظ ، قال تعالى: ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾[2] إلى أن ذكر عشرة أصناف ، وختم ﴿ الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ ولم يغير الأسلوب ، إنما المناسبة أن الإنسان كثير التقلب وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبه كيف يشاء ، فإنه يكون غائبا فيحضر بكلمة واحدة ، وآخر يكون حاضرا فيغيب ، فالله تعالى لما قال: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[3] تنبه السامع وحضر قلبه ، وتمثل الله حاضرا أمامه فقال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[4] .

وأما الخاصة فتختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم ، وإن صح أن نطلق عليها أغراض الالتفات وهى كثيرة فمنها قصد تعظيم شأن المخاطب كما فى ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فإن العبد إذا افتتح حمد

---

(١) البرهان جـ ٣ ص٣٢٥ .
(٢) الأحزاب ٣٥ .
(٣) الفاتحة ٢ .
(٤) الفاتحة ٥ .

مولاه بقوله : " الحمد لله " الدال على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرك للإقبال عليه سبحانه فإذا انتقل إلى قوله : " رب العالمين " الدال على ربوبيته لجميعهم قوى تحركه ، فإذا قال : " الرحمن الرحيم " الدال على أنه منعم بأنواع النعم ، جليلها وصغيرها تزايد التحرك عنده فإذا وصل إلى : " مالك يوم الدين " وهو خاتمة الصفات الدال على أنه مالك الأمر يوم الجزاء ، فيتأهب قربه ، ويتيقن الاقبال عليه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات [1] ومن هذا قوله تعالى : ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا﴾ [2] فإن التأدب فى الغيبة دون الخطاب .

وفى بيان تعظيم الرسول يقول الزمخشرى [3] وكما فى قوله تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ [4] ولم يقل " استغفرت لهم " عدل عنه إلى طريق الالتفات [5] ، لأن فى هذا الالتفات بيان تعظيم استغفاره .

ومن هذه الأغراض التنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه كقوله تعالى : ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ [6] أصل الكلام فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ، ليتلطف بهم ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، ثم لما انقضى غرضه من ذلك قال : " وإليه ترجعون " وكان حقه أن يقول : ما كان أصل الكلام عليه ومقتضياً له : " ومالكم لا تعبدون الذى فطركم " .

---

(١) البرهان جـ ٣ ص٣٢٦ .
(٢) الاسراء ١١١ .
(٣) الكشاف جـ ٢ص ٤٠٨ .
(٤) النساء ٦٤ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٨ .
(٦) يس ٢٢ .

ومنها أن يكون الغرض به التتميم لمعنى مقصود المتكلم ، فيأتى به محافظة على تتميم ما قصد إليه المعنى المطلوب له ، كقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾[1] أصل الكلام " إنا مرسلين رحمة منا " ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر ، للإنذار بأن الربوبية تقتضى الرحمة للمربوبين للقدرة عليهم ، أو لتخصيص النبى ﷺ بالذكر ، أو الاشارة إلى أن الكتاب إنما هو إليه دون غيره ، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الرب الموضوع موضع المضمر ، للمعنى المقصود من تتميم المعنى.

ومن فوائد الالتفات أيضا ، تكراره فى موضع واحد ، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصي الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[2] نجد أن هذه الآية الكريمة تكرر فيها الالتفات فى أربعة مواضع ، فانتقل عن الغيبة فى قوله " سبحان الذى أسرى بعبده" إلى التكلم فى قوله : " باركنا حوله " ثم عن التكلم إلى الغيبة فى قوله : " ليريه " بالياء على قراءة الحسن ، ثم عن الغيبة إلى التكلم فى قوله : " آياتنا " ثم عن التكلم إلى الغيبة فى قوله : " إنه هو السميع البصير " . كذلك ماجاء فى الفاتحة ، وفى غيرها من الشواهد القرآنية العظيمة التى مرت بنا .

ومن خلال الشواهد القرآنية السابقة فى بحثنا يتضح أن فائدة الالتفات لا تكمن فقط فى التطرية للسامع وإيقاظه للإصغاء ودفع السأم والملالة عنه فحسب ، وإنما مقتضى التعبير هو الذى يستوجب اختلاف الأساليب فى الأسلوب

---

(١) الدخان ٤- ٦ .
(٢) الاسراء ١ .

الواحد ، وهذا الأمر يجدر بنا أن نقف عنده وقفة متأنية لنرى كيف تعقب فيه " ابن الأثير "[1] " الزمخشري " بالنقد في فائدة الالتفات فنراه يقول : " وليس الأمر كما ذكره الزمخشري [2] ، لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذ لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه فإن ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد ، فينتقل إلى غيره ، ليجدد نشاطه للاستماع ، وهذا قدح في الكلام لاوصف له ، لأنه لو كان حسنا لما مل .... الخ .

قال : والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها ، ليقاس عليها غيرها ، ثم بين " ابن الأثير " فوائد الالتفات فقال : إنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع لا يجري على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي يرد فيه [3] .

وقد رد العلوي [4] كلام " ابن الأثير " واتهمه بالعجز عن فهم كلام الزمخشري ، بينما رفض القزويني كلام " ابن الأثير " وتابع الزمخشري والسكاكي في رأيهما [5] .

والإنصاف أقول : إن الزمخشري حين تناول الالتفات لا ينكر ذلك الملحظ ولا يأباه ، فإن كثيرا ما يقرونه لبيان الالتفات ، والمتأمل لمواضعه في الكشاف يرى

---

(١) الجامع الكبير ص ٩٨ والمثل السائر جـ ٢ ص ١٧٢ . (٢) الكشاف جـ ٤ ص ٤٤٢ .
(٣) الجامع الكبير ص ٩٨ والمثل السائر جـ ٢ ص ١٧٢ . (٤) الطراز جـ ٢ ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٥) الإيضاح ص ١٥٧ بيروت .

أنه يشير إليه ولنسمع إليه حين يفسر " أم الكتاب " فيقول : فى حديثه عن الالتفات وباعثه العام هو التطرية لأنها من أهم أغراض النص الأدبى [1] وغيره ، كما يقول : وتختص مواقعه بفوائد [2] .

ولعل من هذه الفوائد فى نقل الأساليب وتغييرها لاختبار السامع وتوكيد الخبر ، بالإضافة إلى حاجة التعبير إليها ، لتمكن الخبر فى ذهن المخاطب حسب الموقع ، وهذا ما يعنيه الزمخشرى بقوله ، وقد تختص مواقعه بلطائف .

ففائدة الالتفات هنا لم تكن لمجرد إيقاظ نشاط السامع ، وإنما كانت تعظيما ، وتنبيها ، واختصاصا ، واهتماما ، أو توبيخا ، إلى آخر ما جاءت به فوائد الالتفات وذكرها العلماء جميعا .

هذا وقد سبق هؤلاء جميعا إلى هذه النظرية الثاقبة " ابن جنى " [3] ت٣٩٢هـ حيث يقول : لم يكن ترك أسلوب إلى أسلوب لمجرد الاتساع فى اللغة ، أو التصرف فى اللفظ بل لأمر أعلى ، وغرض أسمى .

وبعد – فقد وفقنا الله على الوقوف على شواهد كثيرة فى القرآن الكريم من خلال هذه الدراسة وموضوعها " أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم " فما جاء فيها من شواهد قرآنية كان على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، والتى أرجو أن يفيد منها كل باحث فى هذا التخصص ، راجية من الله المعونة على استكمال الطريق ، فله الحمد على ما أعطى وقدر .

---

(١) الكشاف ج٤ ص ٤٤٢ وانظر البلاغة القرآنية فى بلاغة الزمخشرى د / أبو موسى وانظر روائع الاعجاز ص ١١١ د/ عز الدين على السيد .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١١ .
(٣) المحتسب جـ ١ ص ١٤٥ .